فتُفسده ، ولو تركتَه وشأنه لربما يهتدى إلى منهج الله .. إذن : أنت أفسدتَ الصالح ومنعت القابل للصلاح أن يُصلح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

قوله :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

يعنى من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعَاة والوعاظ والأئمة الذين بلّغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون أمام الله سبحانه على مَنْ قصّر فى منهج الله .

وقد يكون معنى :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

والشهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شكَّ أن حجته قوية وبيّنته واضحة .

وقوله :

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : شهيداً على أمتك كأنه ﷺ شهيد على الشهداء .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

الكتاب : القرآن الكريم .. تبياناً : أى بياناً تاماً لكل ما يحتاجه الإنسان ، وكلمة (شىء) تُسمَّى جنس الأجناس . أى : كل ما يُسمَّى « شىء » فبيانُه فى كتاب الله تعالى .

فإنْ قال قائل : إنْ كان الأمر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن يجتهدوا لِيُخرجوا لنا حُكْماً مُعيّناً ؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً فى الأصول ، وقد أعطى الحق تبارك وتعالى لرسوله ﷺ حقَّ التشريع ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

إذن : فسُنة الرسول ﷺ قَوْلاً أو فعْلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ، وهى شارحة له ومُوضّحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين هذا فى كتاب الله ؟ نقول فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

وقد بيَّن الرسول ﷺ هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل

رضى الله عنه - قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكانياته فى القضاء . فسأله : « بِمَ تقضى ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : فبُسنة رسول الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى[1] ولا آلو - أى لا أُقصّر فى الاجتهاد .

فقال ﷺ : « الحمد لله الذى وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضى الله ورسوله »[2] .

إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نصَّ فيها ، لا فى الكتاب ولا فى السنة ، فقد أبيح لنا الاجتهادُ فيها .

ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده[3] - رحمه الله - حُدِّث عنه وهو فى باريس أن أحد المستشرقين قال له : أليس فى آيات القرآن :

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

قال : بلى ، قال له : فهات لى من القرآن : كم رغيفاً يوجد فى أردب القمح ؟

---

(١) قال الخطابى فى « معالم السنن » : « يريد الاجتهاد فى رد القضية من طريق القياس إلى معنى الكتاب والسنة ، ولم يرد الرأى الذى يسنح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنة . وفى هذا إثبات القياس وإيجاب الحكم به » . نقله شمس الحق العظيم آبادى فى « عون المعبود شرح سنن أبى داود » (٩/٣٦٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٨٧) ، والترمذى فى سننه (١٣٢٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) مفتى الديار المصرية ، من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، ولد ١٨٤٩ م فى قرية من قرى الغربية بمصر ، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم الأزهر ، له « تفسير القرآن الكريم » ورسالة التوحيد . أصدر مع الأفغانى جريدة « العروة الوثقى » فى باريس ، توفى بالأسكندرية عام ١٩٠٥ عن ٥٦ عاماً .. [الأعلام للزركلى ٦/٢٥٢] .

فقال الشيخ : نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال .. فقال المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذى ما فرط فى شىء ، فقال الشيخ : هذا القرآن هو الذى علَّمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر ، فقال :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

إذن : القرآن أعطانى الحجة ، وأعطانى ما أستند إليه حينما لا أجد نصاً فى كتاب الله ، فالقرآن ذكر القواعد والأصول ، وأعطانى حَقَّ الاجتهاد فيما يعنّ لى من الفروع ، وما يستجدّ من قضايا ، وإذا وُجِد فى القرآن حكم عام وجب أن يُؤخذ فى طيّه ما يُؤخذ منه من أحكام صدرت عن رسول الله ﷺ ؛ لأن الله وكله.

فقال :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

وكذلك الإجماع من الأمة ؛ لأن الله تعالى قال :

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ[1] مَا تَوَلَّىٰ .. ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء]

وكل اجتهاد يُرَدُّ إلى أهل الاجتهاد :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) نوله ما تولى : أى نوجهه إلى ما أحب ، أى : نيسره إلى ما فضله ، فنتركه فى ضلاله الذى آثره وأحبه ، أو نمكنه من السير فى ضلاله حتى يلقى جزاءه . [القاموس القويم ٢/٣٥٩] .

إذن : فكلّ ما صدر عن الرسول ﷺ وعن الإجماع وعن الأئمة المجتهدين موجود في القرآن ، فهو إذن صادق .

ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فهي كثيرة ، فما الذي يتعرّض له القرآن ؟ يتعرض القرآن للأحكام التكليفية المطلوبة من العبد الذي آمن بالله ، وهناك أمور كونية لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأنْ يعلمها ، فهو ينتفع بها سواء علمها أو جهلها ، فكوْنُ الأرض كُروية الشكل ، وكَوْنها تدور حول الشمس ، وغير هذه الأمور من الكونيات إنْ علمها فبها ونعمتْ ، وإنْ جهلها لا يمنعه جهله من الانتفاع بها .

فالأميّ الذي يعيش في الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيئاً عن طبيعتها وكيفية عملها ، ومع ذلك ينتفع بها ، مجرد أن يضع أصبعه على زِرّ الكهرباء تُضيء له .

فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانةً واضحة ربما صَدَّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مقاصد القرآن حول الآيات الكونية ؛ ولذلك سألوا رسول الله ﷺ عن الأهلّة ، كما حكى القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

والأهلة : جمع هلال ، وهو ما يظهر من القمر في بداية الشهر حيث يبدو مثل قلامة الظفر ، ثم يزداد تدريجياً إلى أنْ يصل إلى مرحلة البدر عند تمام استدارته ، ثم يتناقص تدريجياً أيضاً إلى أنْ يعودَ إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف رَدَّ عليهم القرآن ؟ لم يُوضح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الأرض إذا حالتْ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية ؛ لذلك يقول لهم : اصرفوا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه في الأهلة :

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

فردَّهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدى ، فاهتمَّ ببيان الحكمة منها ، وفى نفس الوقت ترك هذه المسألة للزمن يشرحها لهم ، حيث سيجدون فى القرآن ما يُعينهم على فَهْمْ هذا الموضوع .

إذن : قوله تعالى :

﴿مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الانعام]

أى : من كل شىء تكليفىّ ، إنْ فعله المؤمن أثيب ، وإنْ لم يفعله يُعاقب ، أما الأمور الكونية فيعطيهم منها على قدر وَعْيهم لها ، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد .

لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله فى القرن الذى نزل فيه ، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء ، فالعقول تتفتّح على مَرِّ العصور وتتفتّق عن فكر جديد ، ولا يصح أنْ يظلّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد ، لابُدَّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتقاءات البشر فى علومه الكونية .

والرسول ﷺ حينما رأى الناس يُؤبِّرون النخل ، أى : يُلقِّحونه . وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب ، حيث يأخذون من الذكر ويضعون فى الأنثى ، فماذا قال لهم ؟ قال : لو لم تفعلوا لأثمر ، ففى الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل ، فلما سُئل ﷺ فى ذلك قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[1] .

فهذا أمر دنيوى خاضع للتجربة ووليد بَحْث معمليّ ، وليس من مهمة الرسول ﷺ توضيح هذه الأمور التى يتفق فيها الناس وتتفق فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التى تختلف فيها الأهواء ، فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً فى العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات والاستنباطات التى تُسخر أسرار الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف الناس حول مُعْطيات هذه الموجة المادية ؟ هل نقول مثلاً : هذه كهرباء أمريكانى ، وهذه كهرباء روسى ؟ هل نقول : هذه كيمياء إنجليزى ، وهذه كيمياء ألمانى ؟

فهذه مسألة وليدة المعمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، فى حين نجدهم يختلفون فى أشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية .. الخ ، فجاء الدين ليحسمَ ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك نرى كل معسكر يحاول أنْ يسرقَ ما توصّل إليه المعسكر الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليتابعوا أحدث

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ مرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ما توصّل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً ؟ لا .. بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكى لا تنتقل هذه المبادىء إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنيهم .

وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح فى حَقّ رسول الله أن يُشير على الناس بشىء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أنْ يُؤصِّل قاعدة فى نفوس المتكلمين فى شئون الدين : إياكم أنْ تُقحموا أنفسكم فى الأمور المادية المعملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوى فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كُروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم فى قضية لا دَخْل للدين فيها ، وقد حذرهم رسول الله ﷺ من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كُروية فعلاً ؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غَلْقه .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدىً) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضى أن يقول : وهادياً ، لكن لم يَصف القرآن بأنه هاد ، بل هُدىً ، وكأنه نفس الهدى ؛ لأن هادياً ذاتٌ ثبت لها الهداية ، إنما هُدى : يعنى هو جوهر الهدى ، كما

نقول : فلان عادل . وفى المبالغة نقول : فلان عَدْل . كأن العَدْل مجسّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

فما معنى الهدى ؟ هو الدلالة على الطريق الموصّل للغاية من أقرب الطرق .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ مرّة يُوصَف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء : أن يُوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هى الوقاية التى تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فَمَنْ عمل بمنهجه فقد بُشّر بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد فى نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾

للحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القُرْبى . وثلاثة نَواه : عن الفحشاء والمنكر والبغى . ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه

الآية[١] لأنها جمعتْ كل الفضائل التى يمكن أن تكون فى القرآن الكريم .

ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون[٢] كان رسول الله ﷺ يحب له أن يُسلم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله ﷺ لا يحب عَرْض الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشيَماً تحسن فى الإسلام .

وكأنه - ﷺ - ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون فى غير مسلم ، لذلك كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث فى الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ فى مجلس ، فرآه رَفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون : ما حدث يا رسول الله ؟ فقال : إن جبريل - عليه السلام - قد نزل علىَّ الساعة بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

قال ابن مظعون - رضى الله عنه : فاستقر حبُّ الإيمان فى قلبى بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير[٣] .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون فى هذه الآية قال : يا معشر قريش آمنُوا بالذى جاء به محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق[٤] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٨٩٢/٥) .

(٢) هو : عثمان بن مظعون الجمحى ، أبو السائب ، صحابى ، كان من حكماء العرب فى الجاهلية ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر إلى أرض الحبشة مرتين ، شهد بدراً ، لما مات جاءه النبى ﷺ فقبله ميتاً ، حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان . [الأعلام للزركلى ٢١٤/٤] .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٥٩/٥) وعزاه لأحمد والبخارى فى الأدب وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وكذا أورده الواحدى فى أسباب النزول (١٦١) .

(٤) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٨٩١/٥) أن أبا طالب قال : اتبعوا ابن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق.

ويُروى أن رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ، وكان معه أبو بكر وعلى ، قال على : فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة ، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان ابن ثعلبة فقال : إلى أى شىء تدعونا يا أخا قريش ؟ فقال ﷺ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]

فقال مقرون : إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، أفِكتْ[1] قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك .

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبى جهل ، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له : إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا ، فأفكر[2] الوليد بن المغيرة ـ أى : فكَّر فيما سمع ـ وقال : والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما هو بقول بشر[3] .

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن ، فقالوا : حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر .

---

(١) الإفك : الكذب والإثم . والأفاك : الذى يأفك الناس أى يصدهم عن الحق بباطله . والمأفوك : المأفون وهو ضعيف العقل والرأى . [لسان العرب ـ مادة : أفك] .

(٢) فكرَ فى الشىء وأفكر فيه وتفكّر . بمعنى واحد . [لسان العرب ـ مادة : فكر] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٨٩٢/٥) .

وهكذا دخلتْ هذه الآيةُ قلوبَ هؤلاء القوم ، واستقرتْ فى أفئدتهم ؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ ، دعَتْ لكل خير ، ونَهتْ عن كل شر .

قوله : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمِّى الحاكم العادل مُنْصفاً ؛ لأنه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه ، وكأنه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعل الميزان ، والميزان تختلف دقّته حَسْب الموزون ، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلّ زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً فى الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر فى كل أقضية الحياة من القمة فى شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب فى أمور التكليف كلها ، فى الأمور العقدية التى هى عمل القلب ، وكذلك مطلوب فى الأمور العملية التى هى أعمال الجوارح فى حركة الحياة .

فكيف يكون العدل فى الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود

إله فى الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة ، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء ، فجاء العدل فى الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنزّه عمّا يُشبه الحوادث ، كما وقف موقفَ العدل فى صفاته سبحانه وتعالى .

فلله سَمْع ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا ننفى عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطِّلة ، ولا نُشبِّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة ، بل نقول : ليس كمثله شىء ، ونقف موقف العَدْل والوسطية .

كذلك من الأمور العقدية التى تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه فى أعمال العبد ؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً . ومن يقول : لا ؛ بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها .

فيأتى الإسلام بالعدالة والوسطية فى هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التى خلقها الله فيه للاختيار .

وفى التشريع والأحكام حدث تبايُن كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام ـ فى القصاص مثلاً : فى شريعة موسى حيث طغتْ المادية على بنى إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴿١٥٣﴾ ﴾ [النساء]

فهم لا يفهمون الغيبَ ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم

القصَاص ولابُدّ ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكَثُر فيهم القتل ، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع : مَنْ قتَل يُقتلُ ، والقتل أنْفى للقتل .

وقد تعدّى بنو إسرائيل فى طلبهم رؤية الله ، فكونُك ترى الإله تناقض فى الألوهية ؛ لأنك حين تراه عينُك فقد حددّتَه فى حيّز .

إذن : كونه لا يرى عَيْن الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع فى رؤيته جَلَّ وعلاً ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التى بين جَنْبى كل منّا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكّر ، وبها نعيش ، أين هى ؟!

فإذا ما فارقتْ الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس فى مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأى حاسّة من حواسّك ؟!

فإذا كانت الروح وهى مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمَنْ خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تُدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنىً من المعاني التى يدّعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها ، هذا الحق ما شكْله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟! فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع فى رؤيته ؟!

ومن إسـراف بنى إسـرائيل فى المـادية أن جـعلوا لله تعـالى فى التلمود جماعـة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قـاعداً على صخرة يُدلى رِجْليْه فى قـصعة من المـرمر ، ثم أتى حوت .. الخ .. سبـحان الله ؛ ألهذا الحدِّ وصلتْ بهم المادية ؟

ومن هنا كان الكون فى حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هى أيضاً مُسـرفة فى الروحـانية ليحـدث نوع من التوازن فى الكون ، فـجاءت شـريعة عـيسى ـ عـليه السـلام ـ بعد مـادية مُـفْرطة وإسـراف فى المـوسَوية ، فكـيف يكون حُكْم القـصاص فـيـها وهى تهـدف إلى أنْ تسموَ بروحانيات الناس ؟

جـاءت شريعـة عـيسى عليـه السلام تُهـدِّىء الموقف إذا حـدث قتل ، فيكفى أن قُتِل واحـد ولنستبقى الآخر ولا نثيـر ضجَّة ، ونهيج الأحـقـاد والترة بين الـنـاس ، فدَعَتْ هـذه الشـريعـة إلى العفـو عن القاتل .

ثم جاء الإسـلام ووقف موقف العدل والوسطـية فى هذا الحكم ، فأقرَّ القصاص ودعا إلى العفـو ، فأعطى ولىَّ المقتول حَقّ القصاص ، ودعاه فى نفس الوقت إلى العفو فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ونلاحظ هنـا أن القـرآن جـعلهـم إخـوة لِيُـرقِّق القـلوب ويُزيل الضـغائن .

وللقصاص فى الإسلام حكَم عـالية ، فليس الهدف منه أن يُضخّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِى الأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

فمن أراد أنْ يحافظَ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينمـا يُعطى ربُّنا تبارك وتعـالى حقَّ القصـاص لولىِّ المقـتول ويُمكّنه منه تبردُ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر فى العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الـغِلَّ من الصدور ويُطفِىء نار الثأر بين الناس .

ولذلك نرى فى بعض البلاد الـتى تنتشر فيـها عمليـة الثأر يأتى القاتل حاملاً كفنه على يده إلى ولىِّ المـقتول ، ويضع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديْك اقتلنى وهذا كفنِى .

مـا حدث ذلك أبداً إلا وعـفا صـاحب الحق وولىّ الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من ولىِّ الدم أداةُ بِـنَاء ، ووسيلة محبة ، فـحين نعطيه حَقّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصـبحتْ حياة القاتل هبةً من ولىِّ الدم ، فكأنه استـأثره واستبقـاه بعفوه عنه ، وهذا جمـيل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حقَن دم ابننا .

مـوقف آخـر لعدالة الإسـلام ووسطيتـه نراها فى حُكْم الحـيض مثلاً ، فـفى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ يُخـرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفى شريعة عيسى - عليه السلام - لا مانع من وجودها فى البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل فى هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض فى بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية فى حياتنا ، والتى هى عصب الحياة ، والتى بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكُل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث فى المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يَخدمنى به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذى تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتُراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ فى حركة الحياة واكتسبتَ المال الذى هو عصبُ الحياة فعليك أن تُوازنَ بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبت فى نفقاتك الحاضرة فقد ضيَّعتَ على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبنى به بيتاً مثلاً ، أو تشترى به سيارة ، أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة .

وهذا ما نسميه الإسراف .

وفى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شىء ، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسك الرمَق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تُمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون ملُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقَّق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقّى هو فى حياته وأنت مُعْدم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدّخر جُزْءاً من كَسْبك يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ (٢٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . [القاموس القويم ٢/ ٩٩] .

قَوَامًا ﴿٦٧﴾ [الفرقان]

إذن : فالعَدْل أمر دائر فى كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عَقَدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال فى حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْر الأمور الوسط .

وقوله : ﴿ وَالإِحْسَانِ.. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

ما الإحسان ؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك ، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى :

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..﴿١٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحق ، وأنْ تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ، عملاً بقوله تعالى :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والناس فى الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستعداده الخُلقى .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كَظْم القِرْبة المملوءة ،

فـالإنسان يكظـم غَيْظه فى نفسـه ، ويحتـمل مـا يَعـتلج بداخله على المذنب دون أن يـتعدَّى ذلك إلى الانفـعال والردّ بالمـثل ، ولكنه يظل يعانى ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره فى قلبه .

لذلك يحـسُن الترقى إلى المـرتبـة الأعلى ، وهى مرتبـة العفـو ، فيأتـى الإنسان ويقول : لماذا أدَعُ نفـسى فريسة لهذا الغـيظ ؟ لماذا أشغل به نفسى ، وأقَـاسى ألمه ومرارته ؟ فيمـيل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمَّنْ أساء إليه ، ويُخرِج المسـألة كلها من قلبه .

فإن ارتقى الإنسان فى العـفو ، سعى إلى المرتبـة الثالثة ، وهى مـرتبة أن تُحـسن إلى مَنْ أسـاء إليك ، وتزيد عـمـا فرضَ لك حـيث تنازلتَ عن الردِّ بالمـثل ، وارتقيتَ إلى درجـة العارفيـن بالله ، فالذى اعتدى اعـتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسـبه ، والذى ترقَّى فى درجات الإحـسان ترك الأمـر لقـدرة الله تعالى ، وأيْـن قدرتُك من قـدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسـان أجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أنْ تعفوَ عمَّنْ أساء ، بل إلى أنْ تُحسِن إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولديْن اعتدى أحـدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيّهما يميل قلبك ؟

لا شكَّ أن القلب هنا يميل إلى المـعتدى عليه ، وقد يتـعدّى الأمر

إلى أنْ تُرضيه بهدية وتُريه من حنانك وألطافك ما يُذهب عنه ما يُعانى ، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهى التى عطفتْ قلبك إليه ، وعادتْ عليه بالهدايا والألطاف .

إذن : من الطبيعى أنْ يُحسنَ المعتَدى عليه إلى المعتدى ، وأنْ يشكرَ له أنْ تسبَّب له فى هذه النعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصرى ـ رحمه الله : أفلا أُحسِن لمن جعل الله فى جانبى ؟

فالإحسان : أنْ تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكونَ من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبَّدنا الله به ، فمثلاً تعبَّدنا الله بخمس صلوات فى اليوم والليلة فلا مانعَ من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر فى الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسان فى الكيفية دون زيادة فى العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أُحسن ما أنا بصدده من الفرْض ، وأُتقن ما أنا فيه من العمل ، وأُخلِصَ فى ذلك عملاً بحديث جبريل عليه السلام ـ حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

فعليك أن تستحضر فى عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإنْ لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقلّ من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأنْ تُعطى العبادة حقَّها ولا تسرق منها ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فاللصُّ لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه ، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين ، أيليق بنا أنْ نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا ؟!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخلَل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »

وقال بعضهم[1] فى معنى العدل والإحسان :

العدل : أن تستوى السريرة مع العلانية .

والإحسان : أن تعلو السريرة وتكون أفضل من العلانية .

والمنكر : إنْ علَتْ العلانية على السريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

إيتاء : أى إعطاء .

قالوا : لأن العالم حلَقات مقترنة ، فكل قادر حوله أقرباء ضُعَفاء محتاجون ، فلو أعطاهم من خيْره ، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه

---

(١) قاله سفيان بن عيينة فيما نقله القرطبى عنه فى تفسيره (٣٨٩٢/٥) وقال ابن العربى :

– العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر ، والامتثال للأوامر .

– وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى .

– وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا فى سر ولا فى علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى .

لَعَمَّ الخير كل المجتمع ، وما وجدنا مُعْوزاً محتاجاً ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعطى مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى فى مجتمعنا فقيراً ، وقد حثتْ الآية على القريب ، وحنَّنَتْ عليه القلوب ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل فى دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبى ﷺ ؛ لأن قرابة النبى ﷺ حرِّمتْ عليهم الزكاة التى أُحلّت لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مَيْزة يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ فى حاجة إلى الزكاة ، وإنْ كان أقرباؤكم أصحابَ رحم ، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله ﷺ أوْلى من أرحامكم ، كما قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب]

هذه هى مجموعة الأوامر الواردة فى هذه الآية ، وإنَّ مجتمعاً يُنفِّذ مثل هذه الأوامر ويتحلّى بها أفراده ، مجتمع ترتقى فيه الاستعدادات الخُلقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع تعمُّ فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

وهذه مجموعة من النواهى تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قويماً يضمن سلامة المجتمع ، وأولى هذه النواهى النهى عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآن فاحشة ، فهى إذن الزنا ، أو كل شىء يخدش حُكْماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلّق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنَسُ الأعراض ، وبه يشكُّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصحّ ، ولا ينبغى لأحد أن يطلع عليه .

(والمنكر) هو الذنب الذى يتجرأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرّج أن يعرفه المجتمع فيستره فى نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .

(والبـغى) هـو الظلم فـى أىّ لوْنٍ من ألوانه ، وهـو داخل فى أشيـاء كثيرة أعظمـها ما يقع فى العقـيدة من الشرك بالله ، كمـا قال تعالى :

﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

والظلم هنا أنْ تسلبَ الحق ـ تبارك وتعالى ـ صـفة من صفاته ، وتشرك مـعه غيره وهو خلقك ورزقك ، ومنه ظلم الرسـول ﷺ حيث لم يُجرَّب عليه فى يوم من الايام أنْ قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما لم يُجرّب عـليه الكذب أو غيـره من الصفـات الذميمـة ، ومع هذا كله قالوا عنه حينمـا نزل عليه القرآن كذاب وسـاحر ومجنون ، وأىُّ ظلم أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسـان لنفسـه حينمـا يُحقِّق لهـا شهوة عـاجلة ومُتعـةً زائفة ، تُورثه ندماً وحَسْرة وألمـاً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمتْ مـجمـوعة مـن الأوامر والنواهى التى تضـمن سلامة المجتمع بمـا جمعتْ من مكارم الأخلاق ، والأخلاق أعمُّ من أن تكون فى الاعـتقادات ، وأعمُّ مـن أن تكون فى المعـجزة إيمانـاً بها ، وأعمُّ مـن أن تكون فى التكـاليف ، وأعمُّ من أن تكون فى أمـر لا حَدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعِظُكُمْ ..(٩٠) ﴾ [النحل]